الجزء ٦ المجلد ٧

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : حزيران سنة ١٩٢٧ م الموافق ذي الحجة سنة ١٣٤٥ هـ

محاضرة

في الكرم وتأثيره في عالم الاجتماع

ايها السادة : لقد أسمعكم هذا المنبر منذ عامين محاضرات جمة ، وخطباً عديدة في الأدب واللغة وانواع شتى من العلوم والفنون . فلاق بي الآن ان انتقل بكم في محاضرتي هذه الى موضوع أخلاقي عمراني . هو مزية من مزاياكم ، ومكرمة من مكارم أسلافكم . له عظيم تأثير في حالة الاجتماع الانساني شرقاً وغرباً ، بدواً وحضراً ، الا وهو الكرم . وفي يقيني انكم تجدون فيه لذة وفكاهة ، وارتياحاً وعبرة . فأقول :

(الأغنياء يعظمون لانهم أقوى على الإمداد والإحسان)
(فاذا تباخلَ ذو غنىً أضحى الفـ ـقير أجلّ نفعاً منه للعمران)
(فعلامَ يُكرمُ منعم ذو ثروة لم يُجد خيراً عالم الانسان)
(والإلامُ يُزرى بائسٌ ذو حرفةٍ يشقى لينعم ذو الغنى المتواني)
(سبحان ربي كم نرى في ذا الورى حيفاً وظلماً واضح البرهان)

الكرم ، والجود ، والسخاء ، والحباء ، والسماحة ، والعرف ، والمعروف ، والعرفان ، والنوال ، والنائل ، والرِفد ، والإحسان ، والبذل ، والجَدى ، والنَدى ، والمنح ،

(١) للاستاذ الشاعر الناثر سليم بك عنحوري احد اعضاء المجمع نليت في ردهة المجمع العلمي العربي في ٧ ايلول سنة ١٩٢٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والنفح ، والسيب ، والنفل ، والهبة ، والصلة ، والهدية . كلمات مترادفة تدل مع بعض الفوارق على معنىً واحد . يراد به العطاء نبلاً وأريحية . او عطفاً وشفقة . او إغاثةً ومعونة بلا مقابل مادي . او موجب ديني او قضائي .

فالكرم إذن بمقتضى هذا التحديد والتعريف لا يكون اداء الدين او سابق حق . ولا وفاء لزكاة او نذر . ولا جزاء لعقوبة . او ضماناً لغرامة . او صلحاً عن خصومة . او قياماً بما يلزم المرء عياله من اليتامى والاقربين . فان هذه المعدودات وأشباهها انما هي من قبيل ايفاء الحقوق وابراء الذمم والنهوض بالفروض والواجب فلا تحسب من الكرم في شيء كما تعلمون .

والكرم نوعان اما خاص واما عام . فالخاص ما شمل شخصاً او أسرة او جماعة في حال من الاحوال . فيكون نفعه موقتاً ومنحصراً بالمحسن اليهم دون سواهم . والعام ما يبذل في سبيل خيري او علمي . بحيث ينفع قوماً بجماعتهم او أمة بأسرها أمداً مديداً . وكلاهما مفيد ولازم للجامعة الانسانية . وان كان الثاني أنفع وأبقى وأعم وأتم .

ولا فرق من حيث النتيجة بين ان يكون العطاء عفواً قبل الطلب . او تلبيةً للسائل بعد الطلب . وان كان الاول منهما أوضح دلالةً . وانصع برهاناً على علو كعب الكريم الجواد واتساع مروءته . ونزاهة غايته .

قال الحسن رضي الله عنه : المعروف ما كان ابتداء من غير مسألة . فمن تعطيه بعد المسألة انما يأخذ بما بذل لك من ماء وجهه .

وكان قد دخل على أسامة بن زيد وهو يجود بنفسه فرآه يتأوه لدَين عليه : ستين الف درهم لا يجد له قضاء فحملها عنه قبل السؤال ومضى .

والى فضل هذا النوع من العطاء أشار يزيد بن محمد المهلبي مادحاً الوزير سليمان بن وهب :

(وكم ملحف قد نال ما رام منكم ويمنعنا من مثل ذاك التجمل)
(وعوّدتمونا قبل ان نسأل الغنى ولا بذل للمعروف والوجه يُبذل)

وشر العطاء ما جاء بعد وعد ومطل . وتسويف وتأجيل . ولذلك قيل : « خير البر عاجله » .

مدح بشار بن برد احد الامراء فوعده بجائزة ثم مطله زماناً ، ثم حجبه فاعترضه يوماً في الطريق بعد ان سئمت نفسه وقبض على شكيمة فرسه وأنشد :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(أظلك علينـا منك يومًا سحابةٌ أضاءت لنا برقاً وأبطا رشاشُها)
(فلا غيمها يصحو فييأسُ طامعٌ ولا غيثها يهمي فتروى عطاشُها)

فخجل الأمير وبذل له صلته .

وقد تعجبون يا سادتي لكثرة الكلمات الدالة على معنى الكرم : ولكن هـذا التعجب يزول متى عرفتم ان العرب من شأنهم اذا أحبوا شيئًا ، او خافوا شيئًا ، او تفاخروا وتنافسوا في شيء اكثروا له من اسماء الذات والصفات حتى لقد يتجاوزون في بعضها المئات : كالإبل والأسد والخيل والحيّة ، والسيف والرمح والمرأة ، والخمرة ، وغيرها وغيرها . تلك مزية انفردت بها هذه اللغة الشريفة فلا يضارعها بها غيرها من سائر اللغات .

والكرم كما تعلمون من مميزات هذه الامة . وأسمى مفاخرها . وبه اشتهرت في كل دور من أدوارها — اي حال جاهليتها واسلامها . وفي أطوار بداوتها وحضارتها . وفي عهد تقدمها وتأخرها — فلا عجب اذا تكاثرت فيهـا اسماؤه وتعددت صفاته . وهو في عرف اهلها سجية من سجايا النفس يهتزلها الجواد اهتزاز المهنّد في كف الشجاع . فتفيض يده بما تنبض إحساناً على من يريد ، فيضـاً تنبسط له روح المحسن كما تُسرُّ به نفس المحسَن اليه . على حد قول القائل :

(تعوّد بسط الكف حتى لو انه اراد انقباضـاً لم تطعه أنامله)
(يفيض سروراً كلما فاض سيْبه كأنك معطيه الذي انت نائله)
(فلو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بهـا فليتّق الله سائله)

وهذه السجية موهبة من مواهب الله عزّ وجلّ يخصُّ بها من طاب عنصره . وسمت أعراقه من عباده . فلا تأتي تكلفًا ولا تطبعـاً : فان البخيل اذا تظاهر بالجود حينًا من الدهر لغرض في النفس . او حياء من النـاس او تطالٍ لمنزلة الاجواد لا يبطيء ان يعود الى سالف حاله . وسابق رخسته . ولقد صدق من قال :

(كل امريء راجع يومًا لشيمته وان تخلّق اخلاقاً الى حين)

وكفى بالكرم شرفًا انه من صفات الجمال المطلق والكمال الالهي ولله فيه من الاسماء الحسنى . الكريم . والاكرم . والجوّاد . والمُعطي . والمحسن . والواهب . والوهاب . والرازق . والرزاق . وما بعد ذلك من حاجة لمستزيد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وللعرب في الكرم كما قلنا الطراز المُعْلم . والحظ الأوفر . والذكر الشائع . وان أمة نشأ فيه امثال (كعب بن مامة) الإيادي الذي آثر رفيقه على نفسه بنصيبه من الماء وهو يموت من الظماء . واضراب (حاتم الطائي) الذي ذبح ايام المجاعة فرسه ليطعم ضيوفه واهلَ حيه ، وهو جائع لا يبقي لنفسه قوتاً . واشباه (هَرِم بن سنان) المرّي الذي كان يحمل الديات عن ذوي الثأرات ليصلح بين القبائل حجباً للدماء ، وإزالة للشحناء . وأنداد (صعصعة بن ناجية) الدارمي التميمي جد الفرزدق الشاعر المشهور محيي الوئيدات اي البنات اللواتي اعتاد العرب في جاهليتهم ان يدفنوهن حيات ليأمنوا شرّ إملاقهن في المجاعات وعار سبيهن في الغارات : فان (صعصعة) هذا كان يفتديهن من آبائهن بالمال استحياء لهن حتى جاءهم الاسلام فحرم فيما حرم الوأد . ومنعه بعد اذ كان (صعصعة) استحيى اربعمائة فتاة وفي ذلك يقول حفيده الفرزدق :

(وجدّي الذي منع الوائدات واحيى الوئيدَ فلم يوأدِ)

أجل ! ان أمة نبغ فيها امثال هؤلاء الاجواد في الجاهلية . ومئات بل الوف غيرهم في الاسلام ممن تضرب بجودهم الأمثال . ونفيض بذكر مآثرهم الاندية والاودية — لجديرة بالقول انها المجلية في مضمار البذل والعرفان بين أمم الأكوان . منذ خلق فحطان حتى هذا الزمان .

ولم يقتصر الكرم العربي على الرجال فقط فقد نبغ في نسائهم من حاكينهم فيه : فسفّانة بنت حاتم كانت كأبيها تقري الضيوف وتهب الالوف وتكسو الفقراء الشفوف . ولا تبالي .

وأم البنين بنت عبد العزيز الأموية تعتق في كل يوم رقبة وتحمل عتيقها على فرس وتقول « لو كان البخل قميصاً ما لبسته . ولو كان طريقاً ما سلكته » .

وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : ارسل اليها عبدالله بن الزبير مئة وثمانين الف درهم فقسمتها بين الناس فما امست وعندها منها درهم واحد . ولقد روي عنها ايضاً انها احسنت بسبعين الف درهم في يوم واحد وهي في دِرْعٍ مرقّعٍ لا ثوب لها سواه .

وسكينة بنت الحسين رضي الله عنهما كان يحتكم اليها مجيدو الشعراء كالفرزدق وجرير وجميل وكثير ونصيب فتسمع ما يقولون وتحكم بينهم ثم تحسن اليهم حتى انها اعطت جميلاً العذري في يوم واحد كسوة وطيباً وخمسمائة دينار ولكل من رصفائه مئة مئة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وزبيدة ابنة جعفر زوج الرشيد : لقيها نُصيب (الصغير مولى المهدي) في طريق الحج فترجل وأنشد ابياتاً منها :

(سيستبشرُ البيتُ الحرامُ وزمزمٌ بأم وليّ العهد زين المواسم)
(ويعلمُ من وافى المحصّب أنها ستحمل ثقل الغرم عن كل غارم)

فجادت عليه بعشرة آلاف درهم وفرس .

والعباسة بنت المهدي مدحتها جَنْاء بنت نصيب هذا باربعة ابيات آخرها :

(عليك ابنة المهدي عوذي ببابها فان محل الخير في حيث حلّت)

فأمرت لها بثلاثة آلاف درهم و كسوة وطيب .

وأم سلمة زوج السفاح سمعت كلاماً مستحسناً قاله خالد بن صفوان لزوجها فأمرت له بخمس بدر وخمس حلل .

وفيما ذُكر غنى عما لم يذكر من امثال هذه النوادر الدالة على جود ربات الحجال فان المقام مقامُ إلماعٍ وايجاز لا مقام تفصيل وإسهاب .

ولم ينته الكرم باهله الى هذا الشأو ، و يرتفع بصاحبه الى الأوج الاسمى من المجد والسؤدد الا لانه المرآة الصافية التي تجلي من شعاعها عاطفة الانسان نحو اخيه الانسان . ومبلغ ما تكنه الافئدة النقية من شواعر الرقة والرأفة والحنان . فهو كما لاتجهلون ابن الرحمة وأثرها الظاهر للعيان : فان الأريحية لا تنبعث في النفوس فتفيض على الأكف فتتهلل لها الوجوه بحيث تكشف ضيماً ، وتزحزح بلاء ، وتدفع مصيبة . الا اذا مست الرحمة قلوب أصحابها ، وتسربت الشفقة الى صميم شغافها . فتحدو بها الى إغاثة ذي المحنة بالمال الذي يسمونه سيد الارض ، وعديل الروح ، وقاضي الحاجات — وما إطلاقه من الايدي بالهين السهل — لولا ذلك الشعور الفاعل بالاعصاب الحاسة فعل الكهرباء الا وهو الرحمة الباعثة على المكارم .

ولقد جاء في الحديث النبوي الكريم « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » فالمراد من الرحمة هنا ليس التوجع والتفجع لمصائب الناس فحسبُ ، بل يراد بها مع ذلك ظهور آثارها بالمعونة والإغاثة والإمداد مالاً وجاهاً وعملاً على قدر الوسع والطاقة بلامنٍ ولاإذاعة ولااستعلاء . لان الرحمة غيرالمقرونة بالإحسان والإسعاف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net
مجمع اللغة العربية الجمهورية العربية السورية

لا نفع لها ولا جدوى مادامت مقصورةً على التأوه والتألم فقط ولا تتعداه الى الإغاثة والمعاونة التي هي أس العمران ودعامة الحياة وركن الاجتماع .

يظن بعض الناس ان التعاون انما يراد به ان يكون احدنا مثلاً نساجاً والآخر حراثاً ، والآخر نجاراً . فيتبادل كل منا حاجته من الآخرين بالشراء بحيث تستغني الافراد عن تعدد الاعمال التي تقتضيها الحيوة . وهو ما يقال له (توزيع الاعمال) وتبادل المنافع . وعليه تجري جميع أمم الارض . وبه تقوم الحضارة . وبصلح شأن الجماعات في كل عصر ومصر .

أجل ان ما وصفناه هنا انما هو ضرب من ضروب التعاون الذي هو نتيجة ضرورية وطبيعية لحياة المجموع . وليس هو التعاون كله : فان له ضروباً أخرى أهمها ما كان صادراً عن عاطفة الرحمة : فان الحياة الدنيا كثيرة المعاثر والصدمات والجوائح والامراض . فاذا لم يكن كل فرد عوناً لصاحبه او لمن حوله من بني نوعه حال عثاره ومحينه سقط المجموع لتخاذل الافراد وآل امره الى النعس والشقاء المؤديين الى الضعف والبوار والانقراض وهيهات يتوفر لأمة حظ او يستقيم لها شأن الا بهذا الضرب من التعاون المجاني الطوعي الذي نسميه هنا كرماً وإحساناً وعاطفة ورحمة بل بمقدار ما يزداد عدادُ الرحماء الكرماء المحسنين في قوم زادت حياتهم بسطةً ومنعةً ومعيشتهم راحةً ودعةً . وظهر في أفرادهم ومجموعهم من آثار القوة والنعمة ما ينيلهم الغبطة والسعادة والنعيم والهناء والعكس بالعكس . ولكن قل من يتفكرون .

لقد مرَّ بكم ياسادتي عن الكرم واسمائه ومعانيه وحدوده ومنزلته وأنواعه وتأثيره في المجتمع الانساني مايحتمله المقام . ولقد رأيت قبل ان أعالج تقسيمه الى اقسام تتميز فيها منافعه من مضاره ان أروي لكم لمعاً من مكارم الأجواد من السلف مما فيه فكاهة وعبرة وذكرى .

فمن هؤلاء (حاتم الطائي) الذي مرَّ بكم ذكره وهو أشهر أجواد العرب ذكراً وأبعدهم صيتاً . واليه ينسب الكرم في الجاهلية . فيقال (كرمٌ حاتميٌّ) كما ينسب في الاسلام الى البرامكة وزراء الرشيد فيقال (كرم برمكي) .

وكان حاتم هذا مع جوده شاعراً مطبوعاً وبطلاً مغواراً وغازياً مظفراً اذا قاتل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

غلب ، واذا غنم أنهب ، واذا سئل وهب ، واذا ضرب بالقداح فاز ، واذا سابق سبق ، واذا أسر أطلق .

ومما تفوّق به على اقرانه حتى كان سبباً لشهرته وإذاعة صيته انه كان يرسل عبيده في ليالي الشتاء الباردة المظلمة فيضرمون النار على رؤوس النجاد ، وفي مفارق الطرق ، ليهتدي بها أبناء السبيل ، فيقصدونه للقرى والمبيت . فاذا جلبت النار ولو ضيفاً واحداً عتق موقدها من الرق سروراً بضيفه . وفي ذلك يقول مخاطباً عبده :

(اوقد فان الليل ليلٌ قرٌ عسى يرى نارك من يمرُّ)
(ان جلبتْ ضيفاً فأنت حر)

وكان اذا أهلّ الشهر الاصم الذي تعظمه العرب في الجاهلية نحر كل يوم عشراً من الابل . فيطعم الناس . فلما زاد إتلافه للمال وهو لا يزال في حجر اوليائه ارسله ابوه وقيل جده الى المراعي ليبعده عن الناس . فمرّ به هناك ثلاثة من الشعراء وهم عبيد بن الابرص و بشر بن ابي حازم ونابغة بني ذبيان . ففرّق بينهم مالاً هله من الابل وقفل الى الحيّ مسروراً كمن عاد من ظفر او غنيمة . ولما سأله جده سعد عن الابل. قال له « طوّقتك بها طوق الحمامة مجداً وكرماً » فقال مغتاظاً (شهد الله انني لا أساكنك بعد اليوم ابداً) ثم ترك له جاريةً وفرساً ذات فلوٍ ورحل عنه . وفي ذلك يقول حاتم من ابيات :

(وما ضرّني ان سار سعدٌ باهله وافردني بالدار ليس معي اهلي)
(سيكفي ابتناء المجد سعد بن حشرج واحمل عنكم كل ما ضاع من نفلي)

فما عتم ان جاءه جماعةٌ من بني أسد وقيس . وقالوا له : ان لنا صاحباً فقد راحلته فقال حاتم خذوا فرسي هذه واحملوه عليها . فلما اخذوها تبعها المهر فجرت الجارية وراءه لتمسكه وتعيده فصاح حاتم بالقوم « ماتبعكم فهو لكم » فذهبوا بالجميع اي بالفرس والمهر والجارية . وبقي وحده لا يملك شيئاً .

ومرّ في احد الاشهر الحرم بقوم من بني عنزة واذا باسير لهم يدعوه باسمه و يقول له : انقذني فقد اكلني الإسار . فقال له : ويحك ماانصفتني فقد نوهت بي واستجديتني وانا هنا غريب ولا مال لي . ثم ساوم القوم وافتداه منهم على مال معلوم . وقال لهم :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خلّوا سبيله . وانا أقيم مكانه في قيده حتى أعطي الفداء ففعلوا وما برح اسير القوم يقاسي الذل والامتهان حتى تيسر له الوفاء .

وقيل نزل عليه ضيف ولم يكن عنده شيء فنحر ناقة الضيف واطعمه منها . ثم قال له قد نحرت ناقتك فاحتكم قال (راحلتين) قال حاتم لك عشرون أرضيت قال نعم قال فلك اربعون . ثم قال لمن لديه من قومه من اتاني بناقة الآن فله ناقتان بعد الغارة فاتوه باربعين فدفعها للضيف . وأداها لهم ثمانين .

وكان قيس بن عاصم المنقري من سادات العرب وأجوادهم فنزل به ذات يوم ضيف فأطعمه واكرمه جرياً على عادته . واذا بقومه يتصارخون ونسائه يبكين . فسأل ما الخبر ؟ فقالوا له ان ابنه قُتل . وان القاتل هو الضيف . فقال ما اكم اليه من سبيل . فقد دخل في ذمامي وتحرّم بطعامي . ثم عزل من ماله دية القتيل ودفعها الى أمه . وما زال يرعى ضيفه ويحارسه حتى بلغ حماه .

وكان قيس هذا اذا قدموا له طعاماً يقول التمسوا اكيلاً اي ضيفاً يأكل معي فلم يأكل مرة وحده .

وسرّ تنافس العرب بايواء الضيف واطعامه كائناً من كان انما هو كونهم اهل مضارب وخيام واصحاب إبل وشاء . يدفعهم الاحتفاظ بها . والقيام على تربيتها وانمائها الى انتجاع منابت الكلاء وارتياد مناهل الماء فهم ابداً متنقلون من مرتع الى مربع . ومن سهل الى واد . لا يستقر بهم مكان . ولا يقوم لهم بنيان . فلا يجد المسافرون منهم في طول تلك البوادي وعرضها نزلاً او خاناً او دسكرةً للمبيت او الطعام كما يوجد في المدن والعواصم على النحو المعروف منا الآن . فيلجأون بحكم الضرورة الى استضافة بعضهم بعضاً التماساً للراحة والنوم والقوت . وتخلصاً من وحشة الانفراد في حنادس الليل . ووقايةً لنفوسهم مما قد يفاجئها في تلك الفلوات الخالية من عدوٍّ غادر ، او اسد كاسر ، او وحش جائع نافر .

فمن كان من سادتهم واشرافهم كريم النفس ، واسع النعمة ، طلاباً للشهرة رفع عماد سرادقه ، وتوسط به الحي تمييزاً له عن سواه ليقصده المسافرون فيبذل طعامه للصادرين والواردين والرائحين والغادين ، ولو كابد في ذلك عرق القربة ومنتهى المشقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولقد شاعت هذه المكرمة فيهم . وتمكنت من خاصتهم وعامتهم . حتى عُدَّ لإضراب عنها والزهد فيها عاراً وسبةً تشتم فيها الابناء عن الآباء . وتذم الاحفاد عن الأجداد . ولقد يطرق الضيف ارملةً عجوزاً وحيدةً لا مال لها الا شاة او عنز لفتات بدرّها وتكتسي بصوفها اوشعرها فتذبحها اكراماً لضيفها وهي طلقة الوجه مبذلة الأُنس ثم تبقى الى ما شاء الله أليفة الفقر حليفة البؤس فيحسب عملها هذا مأثرة لها يتحدث بها فتيانهم . ويتناقلها ركبانهم الى امد مديد .

ولا يزال ذلك شأن البدو وبعض اهل المدر حتى يومنا هذا : فكم وكم في بلادنا هذه من شيوخ عشيرة او قرية لاتطفأ ابداً نارهم ولا تنزل قدورهم يبسطون كل يوم عشرات من الاسمطة للذاهبين والآيبين و يبذلون العلف والماء لخيول المقيمين والراحلين لايلتمسون عن ذلك بدلاً ولا يبتغون اجراً . الا طيب الاحدوثة ونباهة الذكر . وغاية مايتطالون اليه من دواعي الفخر ان ينزل بهم ضيف خطير فيخرون له كبشاً . ويطبخون ارزاً . و يجمعون اهل الحي او القرية على جفانهم فيأكلون هنيئاً مريئاً . وينقلبون حامدين شاكرين .

واذا استقرأنا ياسادة ماسرّ بكم من اخبار الكرم الجاهلي نجده منحصر في اربعة انواع : وهي بذل الديات عن متحاربي القبائل والعشائر كما كان يفعل هرم بن سنان ، واستحياء المؤودات من البنات بافتدائهن من آبائهن بالمال كالمأثور عن صعصعة بن ناجية جد الفرزدق . وافتداء الاسرى بالمال او بالنفس كما فعل حاتم باسير بني عنزة . و قرى الضيوف وايواء ابناء السبيل كما هو شائع عند الجميع .

وهذه الأنواع الاربعة منبعثة بالضرورة عن الحاجة فهي والحالة هذه متلائمة مع عادات ومعايش الوسط الناشئة فيه . موافقة كل الموافقة لاقوام رحالين ذوي غزوات لاتنقطع ، وأسفار لا تهدأ ، وعداوات لا تزول . وفي ذلك برهان على ان اولئك البدو أقدر من كثيرين منا على إنزال سخائهم مواضعه . بخلاف مافعل حاتم من توزيع مال جدّه برمته بين ثلاثة من الشعراء سرفاً وتبذيراً . واعطائه ضيفه بدل الناقة التي نحرها لإطعامه اربعين ثم أداء الاربعين الى قومه ثمانين بينما هو فقير وقير لا يملك من حطام الدنيا الا مايؤمل اغتنامه من سلب ونهب عن طريق الغزو والحرب . فان في ذلك من سفه الرأي ما لا يصدر عن عاقل مفكر بصير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بيد ان ظهور الاسلام وانضواء متفرقي القبائل وشذاذ القوم كافة تحت لوائه بعد ان كادت تطحنهم الأحقاد والضغائن . وتأكلهم الحروب والغارات . ثم دخولهم عن طريق الجهاد والفتح في بلاد الفرس والروم وما وراءهما من شواسع البلاد وأطراف الممالك وانتقال الخلافة من الحجاز الى الشام على العهد الأموي ثم الى العراق على العهد العباسي . كل ذلك قد وسّع نطاق الكرم العربي وحوّله الى جهات أخر . فتفنن فيه أجواد ذلك العصر الذهبي تفنناً ينطبق على حضارتهم المكتسبة وثروتهم المغنمة . وترفيههم الباشيء حتى صار امير كمعن بن زائدة الشيباني — وهو من صنائع المنصور ورجاله — يركب في قسيّه نصالاً من الذهب فيرمي بها العدو والصيد وفي ذلك يقول الشاعر :

(يركب في القسيّ نصال تبرٍ و يرمي للعدى كرماً وجودا)
(فللأسرى شفاءٌ من جراحٍ وأكفانٌ لمن سكن اللحودا)

ومعن هذا رجل عصاميٌّ . نشأ في بني شيبان وكان أدلّ بيدر على الخليفة المنصور بأن أنقذه من تهلكة فرفع شأنه . وأسنى مقامه . حتى صار أميراً ممدّحاً يشار اليه بالبنان . وقد اشتهر بالحلم كما اشتهر بالكرم حتى قيل انه لم يغضب . ولم يغتظ قط .

ولما شاع عنه هذا الخُلق وتداولته الألسن ترامن احد شعراء الأعراب مع قوم على مئة بعير يُعطاها اذا استطاع إحراجه وإخراجه عن حلمه ويعطيهم مثلها اذ أخفق . ففاجأه يوماً وهو على سريره بين أشراف قومه وخاصة اهله . وابتدره بلا تحية ولا سلام بقوله :

(أتذكر اذ لحافك جلد شاة واذ نعلاك من جلد البعير)

فبُهت الحضور من وقحة الرجل وسوء أدبه وتعمده الحط من كرامة الامير . اما معن فبقي محافظاً على سكينته وأجابه بلا حدة ولا استياء قائلاً : نعم اذكر ذلك ولا انساه . فقال الشاعر :

(فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلّمك الجلوس على السرير)

فقال معن : سبحانه على كل حال . فقال الشاعر :

(اميرٌ يأكل الفالوذَ سراً ويطعم ضيفه خبز الشعير)

فقال معن : الزاد زادنا . نأكل منه ما نشاء . ونطعم ما نشاء . فقال الشاعر :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(فلست مسلماً ان عشت دهراً على معنٍ بتسليم الامير)

فقال معن : السلام سنة تأتي بها كيف شئت . فقال الشاعر :

(سأرحل عن بلاد انت فيها ولو جار الزمان على الفقير)

فقال معن : ان جاورتنا فمرحباً بك . وان رحلت فمصحوب بالسلامة . فقال الشاعر :

(فجد لي يا ابن فاعلة بشيء فاني قد عزمت على المسير)

فقال معن : أعطوه الف درهم . فقال الشاعر :

(قليلٌ ما أتيت به واني لأطمع منك بالمال الكثير)

فقال معن : أعطوه الفاً أخرى . فتقدم الشاعر الى سرير معن وقد يئس من إغضابه فقبل يده وقال :

(سألت الله ان يبقيك ذخراً فمالك في البرية من نظير)

فقال معن : أعطيناه على هجونا الفين فأعطوه على مدحنا اربعة آلاف . ولما عرف منه قصة الرهان الباعثة له على هذا التهجم أعطاه ايضاً مئة بعير مكان التي خسرها بالرهان . ومئة أخرى بدل التي كان يتوقع ربحها .

واحاديث معن في الكرم اكثر من ان تحصى . ومما قيل فيه رثاء له بعد موته :

(كأن الشمس يوم أصيب معنٌ من الظلماء مُلْبَسَةٌ جلالا)

(وكان الناسُ كلهمُ لمعنٍ الى ان زار حفرته عيالا)

وقيل دخل يزيد بن مزيد مسجداً باليمن فوجد في قبلته مكتوباً :

(مضى معنٌ وخلّفني ببعثي على معن بن زائدة السلام)

فسأل يزيد عن قائله ولما اهتدي اليه أعطاه الف دينار . فقال الرجل يرحم الله معناً : فقد أحسن اليّ حياً وميتاً .

ومن فنون السماحة عند العرب قبل الاسلام وبعده ان يقصد الرجل جواداً منهم يؤدي عنه مهر فتاة أحبها تخطبها ولا مال له فيحمل عنه المهر مهما كان جسيماً ويعطيه ما ينفق في وليمة بنائه بها . كما فعل عمرو بن ابي ربيعة الشاعر غير مرة . وهو ايضاً من أفضل أنواع الكرم وأنجعها في الحسن اليهم كما لا يخفى .

اما صلات الشعراء بالألوف وعشرات الألوف فهو شأنهم بدواً وحضراً وجاهلية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإسلاماً. وقد فاضت باخبارها كتب التاريخ. والأدب العربي حتى لم تبق حاجة لمستزيد.

ومن لطيف فكاهات هذه الصلات. ان عليّ بن جبلة مدح ابا دُلف القاسم بن عيسى العجليّ احد كبار قوّاد المأمون ثم المعتصم بقصيدة منها هذان البيتان:

(انما الدنيا ابو دُلَفٍ بين باديه ومحتضره)
(فاذا ولّى ابو دُلفٍ ولّت الدنيا على أثره)

فأعطاه الف دينار. ثم بينما كان بعد أعوام يسير ابو دُلف في بعض الأزقة مع رفيق له اذ أشرفت فتـانان من قصر فسمع احداهما تقول للاخرى «انظري: هذا ابو دُلف الذي يقول فيه الشاعر» «انما الدنيـا ابو دُلف الخ» فقالت الاخرى: أوَهذا هو؟ قدوالله كنت أحب ان أراه منذ سمعت ماقال فيه ذلك الشاعر. فالتفت ابو دُلف الى رفيقه. وقال له: ما انصفنا عليّ بن جبلة ولا وفيناه حقه. فانه اعطانا مجداً باقياً. واعطيناه مالاً زائلاً. وان ذلك لمن اكبر همي. ثم بعث الى عليّ وكان مريضاً لايقوى على مفارقة بيته بالف دينار ولازال يبرّه ويواصل إحسانه اليه حتى مات.

ومن عجيب امر ابي دُلف هذا انه مع فرط سخائه بالمال كان بخيلاً بالطعـام حتى اشتهر عنه ذلك فقيل فيه:

(ابو دُلفٍ يجود بالف الفٍ ويضرب بالحسام على الرغيف)
(ابو دُلفٍ لمطبخه قتارٌ ولكن دونه ضرب السيوف)

ومن أغرب نوادره في الصلات انه لكثرة جوده قد ركبته الديون حتى لزم داره واشتهر عنه ذلك فدخل عليه بعض الشعراء وأنشد:

(أيا ربَّ المنـايا والعطايا ويا طلق المحيـا واليدين)
(لقد خُبّرتُ ان عليك ديناً فزدفي رقم دينك واقضِ ديني)

فقضى دينه ووصله. وابو دُلف كان مع كرمه الذي تجاوز حد الاسراف وحلمه الذي لم يتقدمه ولم يتأخر عنه من يضاهيه فيه ذا رأيٍ اصيل وغناء رخيم وشعر جيّد وبأس شديد. وهي صفات ومحامد قلما اجتمعت في غيره. ومن شعره متحمساً ومفتخراً:

(أجود بنفسي دون قومي دافعاً لما نابهم قِدْماً واغشى الدواهيا)
(واقتحم الامرَ المخوفَ اقتحامه لإدراك مجدٍ او أعاود ثاويا)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وله الابيات المشهورة في الغزل الممزوج بالفخر :

(أحبك يا جنان فأنت مني مكان الروح من جسد الجبان)
(ولو اني أقول مكان نفسي خشيت عليك بادرة الزمان)
(لإقدامي اذا ما الخيل حامت وهاب كماتها حر الطعان)

فما مرَّ بكم من اخبار معن وابي دُلف هذين يظهر لكم مبلغ إسراف أولئك الناس وإغراقهم بالجود والبذل حتى كانوا يستدينون ويهبون ويُغنون غيرهم ويفتقرون وكلما توسعوا في العطاء على طالبي رفدهم ومستجدي فضلهم كان هؤلاء يتفننون في استنباط الحيل واختراع الأساليب للمبالغة باستدرار النعم منهم واستزادة أنواع الصلات والهبات لهم . متزلفين اليهم بضروب من الوسائل لا تمر على خيال مفكر ولا تخطر على فؤاد لبيب . حتى صار الشعراء والرواة والمغنون في تلك العصور أكثر الناس مالاً . وأعظمهم جاهاً . وأوسعهم نفوذاً وتبسطاً وترفاً .

فالأخطل التغلبي الشاعر كان يدخل على الخلفاء والامراء من بني أمية وهو يتبختر ثملاً وعجباً وفي عنقه قلادة الذهب ثم يخرج وفي يده الصلات الكبار والهبات الجسام ثم يشفع فيمن يريد فلا تردُّ شفاعته . كل ذلك لانه مدَّاحهم المجيد القائل فيهم :

(شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأكرم الناس أحلاماً اذا قدروا)

وجرير التميمي اخذ من عبد الملك بن مروان عشرة آلاف درهم وعشرين راحلةً وجاريةً حسناء . لقوله في المروانيين :

(ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راحِ)

ومروان بن ابي حفصة كان يرفل بالحرير والخزّ ويتقلب على الاستبرق والديباج ويأخذ من المهديّ العباسيّ فما بعده من الخلفاء حتى المتوكل مئات الالوف من الدراهم والدنانير لانه رجّح أحقية الخلافة للعباسيين على الفاطميين من آل البيت بقوله :

(أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام)

قيل لما دخل على المهديّ اول مرة وأنشده الشعر الذي يقول فيه هذا البيت وصله بسبعين الف درهم . وقال له هي لك مني في كل حول مادمت حياً . وفي ذلك يقول مروان مفتخراً :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

(بسبعين الفاً راشني من حبائه وما نالها في الخلق من شاعر قبلي)

وأبانُ بن عبد الحميد اللاحقي اخذ من الرشيد عشرين الف درهم في اول مرة دخل عليه لقوله ضاربًا على الوتر ذاته الذي ضرب عليه مروان بما يتعلق بإرث الخلافة :

(نشدت بحق الله من كان مسلماً أُعِمُّ بما قد قلته العجم والعربْ)

(أعمّ رسول الله اقرب زلفةً لديه ام ابن العم في رتبة النسبْ)

(وأيهما اولى به وبعهده ومن ذا له حق التراث بما وجبْ)

(فان كان عباسٌ أحقّ بتلكمُ وكان عليٌّ بعد ذاك على سببْ)

(فأبناء عباسٍ همُ يرثونه كما العم لابن العم في الإرث قد حجبْ)

وابو العتاهية مات عن سبعة عشرة بدرة من المال لانه كان ملازمًا باب الرشيد وأعقابه من بعده متقربًا الى قلوبهم بما يبدو في شعره من آثار الزهد في الدنيا مع انه كان من أشد الناس حرصًا عليها وطمعًا بها .

وابن الخياط الشاعر دخل يومًا على المهدي مستجديًا مادحًا فأمر له بخمسين الف درهم . فلما قبضها فرقها بين الناس وانشأ يقول :

(لمست بكفي كفه ابتغي الغنى ولم ادر ان الجود من كفه يعدي)

(فلا انا منه ما افاد ذوو الغنى أفدت واعداني فبددت ما عندي)

فأعطاه خمسين الف دينار :

ودخل اسحق الموصلي المغني على الرشيد يصحبه الاصمعي الراوية وكان الرشيد منقبضاً كئيبًا . فأنشده ابياتاً مطلعها :

(وآمرةٍ بالبخل قلت لها اقصري فذلك شيءٌ ما اليه سبيل)

وختامها :

(وكيف أخاف الفقر اواحرم الغنى ورأيُ امير المؤمنين جميل)

فقال له الرشيد : « لله درّ ابيات تأتينا بها ما اشدّ اصولها . واحسن فصولها . واقلّ فضولها » . ثم احسن اليه بخمسين الف درهم . فقال له اسحق : ان وصفك لشعري يا امير المؤمنين احسن منه فعلامَ آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد . وقال اجعلوها له مئة الف درهم . فقال الاصمعي الآن علمت ان اسحق احذق مني بصيد الدراهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ودخل يوماً ابو دُلامة الشاعر على ابي العباس السفاح وكان كثير الإدلال عليه فطلب منه كلب صيد فأعطاه . فطلب غلاماً يقود الكلب . فأعطاه . فطلب دابة تحمل الصيد فأعطاه . ثم طلب جارية تصلح الصيد فأعطاه . ثم طلب منه داراً تجمعهم فأعطاه . ثم مالاً ثابتاً ينفق عليهم من غلته فأعطاه ارضاً عامرة وارضاً غامرة ثم استبدل الغامرة بالعامرة فجعل له الاثنين عامرتين .

فتأملوا يارعاكم الله كيف فرّق ابن الخياط الدراهم ليأخذها دنانير وكيف احتال اسحق حتى جعل الخمسين الف درهم مئة الف وكيف تذرع ابو دُلامة بطلب كلب للصيد حتى توصل ببعض كلمات الى نيل هذه النعم المتوالية التي تعود عليه بالخير الكامل والهناء الشامل . وفي ذلك من شدة الحرص على ابتزاز الاموال ما لا يجهلون .

وكل ما اشرت اليه من احاديث الجود على إفراطه . ومآثر الاحسان على عظمتها . لا يعدّ شيئاً في جانب ما كان يصدر عن البرامكة وزراء الهادي فالرشيد من مدهشات العطاء الذي يتجاوز حدّ المعقول . وكاد يحسب من مبالغات اهل التاريخ : فقد كان لآل برمك في هذا الخُلق القِدح المعلّى والسهم الأنفذ والنصيب الأوفر حتى قيل عنهم انهم شفاء اسقام دهرهم . وغياث اجداب عصرهم . ومنزع ملهوف في زمانهم لاسيما احدهم الفضل الذي قال فيه ابو النضير :

(وللناس معروفٌ وفيهم صنائعٌ ولن يجبر الاحزان الاجدا الفضل)
(اذا ما العطايا لم تكن برمكيةً فتلك العطايا ما تمرّ وما تُحلي)

وهم ولئن لم يكونوا عرباً في الاصل بل كان جدّهم الاعلى فارسياً الا انهم نشأوا في العراق وترعرعوا في دور الخلفاء . وخالطوا خاصة العرب وعليتهم واقتبسوا آدابهم وعاداتهم حتى اصبحوا كأنهم من صميمهم .

كان البرامكة يخرجون بالليل سراً وهم مشكرون معهم الاموال صرراً بين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف فيطرقون الأبواب من بيوت المحاويج اهل الستر والحرمات فيدفعون الى اصحابها الصرة بعد الصرة . وربما طرحوا ما معهم في عتب الابواب فكان الناس لاعتيادهم ذلك يعدون الى العتب اذا اصبحوا فيأخذون ما يجدون .

واتصل بخالف المصريّ ان يحيى بن مُعاذ في حاجة وقد ركبه من الدين ثلاثمائة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الف درهم حتى أرغم على إغلاق بابه تواريا عن غرمائه . فأخبر الفضل بن يحيى . فقال له : دللتنا على مكرمة . ثم امر له بمائة الف درهم . وحمل الى يحيى بن معاذ ثلاثمائة الف درهم قضى دينه بها .

وخرج الواقدي من المدينة بعد ان ساءت حاله وركبه الدين قاصداً البرامكة وهو لا يعرفهم وهم لا يعرفونه . فدخل على يحيى بأسمال من الثياب تحيط به الكآبة والبؤس وقصارى مايتمناه الف درهم فدفع اليه كيساً ولم يعلم ما فيه . فلما تناوله خرج مهرولاً حتى اذا انتهى الى بيته فتحه فاذا فيه اربعة آلاف دينار . فكاد يغشى عليه من السرور ثم ما ابطأ ان ابتاع اثواباً اصلح بها حاله وبكّر من الغد على يحيى ليودّعه ويشكره فتوسم فيه يحيى علماً وفضلاً وادباً فقال له أقم عندنا ولك مثلها في كل عام فأقام عنده عزيزاً مكرماً موسعاً عليه حتى فرّقت بينهما النكبة .

ونظم أبان ابن عبدالحميد كتاب كليلة ودمنة شعراً ليسهل حفظه مبتدئاً بقوله :

(هذا كتاب ادب ومحنه وهو الذي يدعى كليله دمنه)

فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار . واعطاه ابنه الفضل خمسة آلاف دينار . وقال جعفر سأستظهر كتابك هذا . وحسبك مني ان اكون روايتك فيه .

ومما المعت عنه من مكارم البرامكة ان هو الا صبابة من بحر مما يؤثر عن هذه الاسرة التي لم يقم بعدها ولا روي عن احد قبلها من يحاكيها او يتحداها بالجود الفائض والسخاء الاتم لاسيما على المحاويج من اهل النعمة وبيوتات المجد والعلم والفضل . خلافاً لسيف الدولة الحمداني صاحب حلب الذي كان يصادر اموال الناس ويبتز مواريثهم لينعل افراس شاعره ابي الطيب المتنبي بالعسجد . ويهب سائر من يقف ببابه . ويلتف حوله من الشعراء فأرات المسك ونوافج العنبر . ونفائس الخلع والالوف المؤلفة من الدنانير لقاء ما يسمعونه من الاطراء غير المعقول كقول ابي الطيب مخاطباً اياه :

(كأنك في ثوب . وصدرك فيهما على انه من ساحة الارض أوسع)

وفي ذلك وامثاله ما يخالف قواعد الاجتماع ، وسنن العطاء ، وقوانين الاقتصاد في هذا العصر الذي لكل نفقة فيه حساب ، ولكل بذل مقياس ، فان ابواب المثرين والمتمولين في الغرب من ملوك وامراء وسوقة محجبة . وخزائنهم مقفلة دون امثال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هؤلاء المداحين المخرقين . وانهم يبذلون الملايين في سبيل مشروع خيري او معهد علمي و يرصدون مئات الالوف لمن يكتشف مثلاً دواء ناجعاً للسل او السرطان او الطاعون . وليهبون ماهو فوق المأمول لمن يؤلف احسن كتاب في التربية اونوع من العلوم ، ولا يبذلون ديناراً واحداً لمستجد او مداح كاذباً كان او صادقاً بل يقولون له انصرف الى العمل مادمت قادراً عليه فان عجزت لك من ملاجئ العجزة مايغنيك عن التسول المنافي لسنة الحياة . فان الانسان المعافى خُلق ليعمل . لاليعيش كلاً على عواتق الناس .

وفي هذا القول ما ينطبق على ما اوحته الشرائع التي اجمعت على وجوب العمل وكراهة البطالة حتى عدّ العمل ضرباً من العبادة . وما دام الانسان معافىً في جسمه وعقله لايجدر به ان يكون ساقط الهمة ، دنيء النفس ، يبذل ماء وجهه التماساً لمافي ايدي غيره من ثمرات اتعابه ليعيش على بساط الراحة والدعة والخمول متنقلاً من معصية الى كبيرة . ولا بدع ولا غرابة فان رأس البطال مخزن الشيطان . والاحسان الشخصي انما يكون للارملة واليتيم والمريض والسجين والعاجز والمُرْهق . لا لرجال اشداء اقوياء يقاسمونك مالك استجداء وتحيلاً . ليبددوه في سبيل شهواتهم وهم وادعون .

والكرم بوجه عام يقسم الى ثلاثة اقسام : القسم الاول مانسميه (الكرم العادل) و يُحق لصاحبه ان يسمى المحسن الجواد . والقسم الثاني (الكرم الجائر) و يقال لصاحبه المسرف المتلاف . والقسم الثالث (الكرم الاحمق) و يدعى صاحبه المبذّر السفيه .

﴿ القسم الاول ﴾

« الكرم العادل »

هو الكرم الحقّ الذي يستحق وحده ان يسمى كرماً . وله شرطان : الشرط الاول ان يكون من فضلة مال المحسن لا من صلبه . لانه اذا كان من صلب المال لا يلبث المحسن مهما كان مثرياً واسع النعمة ان يفتقر فيظلم نفسه واهله وبلاده : اذ يصبح عاجزاً عن الكسب ، قاصراً عن الاحسان ، بل عالة على سواه . وهنا تتجلى حكمة الآية الكريمة (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) : الشرط الثاني ان ينزل المرء احسانه منزلته و يضعه في محله بحيث ينفع المحسن اليهم نفعاً صحيحاً . لا يضر بمستقبلهم واخلاقهم وعاداتهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولنضرب لذلك مثلاً — زيد متوسط النعمة ، ريعه السنوي الف دينار ، ينفق منها بلا تبذير ولا تقتير ثلاثمائة ، ثم يقسم الباقي وهو سبعمائة ، الى شطرين احدهما يضيفه الى رأس ماله انماء له ، وتحوطاً لعثرات الايام ، والآخر يرصده للاحسان . ان شاء احتبسه الى ان ينمو ويتضاعف بما يليه في مستقبل الاعوام بحيث يصبح كافياً لاحسان ثابت عام : كإنشاء مدرسة او مكتبة اومأوى للايتام . تدوم فائدته ، ويعم نفعه ، ويُبقي لصاحبه الذكر الخالد . وان شاء أطلقه لوجوه بعض الاحسان الخاص كامداد عائلة أخنى عليها الدهر فسلبها نعمتها حتى كاد ينكشف سترها ، وينفضح امرها ، بحيث تصبح مضغة في أفواه الشامتين ، او إغاثة تاجر امسى على شفير الافلاس . فينقذه من ذل التقاضي ووبال السجن بان يعاونه سراً على نفقاته وايفاء مااستحق من اجله من ديونه الى ان يأذن الله بالفرج . او ان يتوسم باحد اولاد البؤس النباهة والذكاء فينفق على تثقيفه وتعليمه مايصيره نافعاً لأسرته . جلاباً للفوائد له ولوطنه . فلا يبقى نمساً يعيش كالحشرات ، عالة مفسداً ، ويموت ذميماً شقياً غير مأسوف عليه . الى غير ذلك من ضروب المكارم التي تخفف الآلام ، وتزيل المحن ، وتفرج الكروب ، وتجلب الفوائد .

هذا هو الكرم العادل الذي تمشي عليه الأمم الراقية الآن . فيرضى عنه الصواب وتقر به عين الحكمة ، وتتوفر فيه شروط الإحكام والاتقان والانصاف . فلا يظلم المحسن بان يستهلك ماله في سبيل اريحيته ، ويصبح من المملقين بل يدوم راتعاً في نعمته ، مقيماً على كسبه ، قديراً على مواصلة الاحسان لبني جلدته ، مستغنياً عن استجداء من لاخلاق لهم ولا مروءة ، ولا يُظلم المحسَن اليه بان يكون ميالاً الى البطالة ، فيغريه بما يناله منه غنيمة باردة على الكسل وبغض العمل ، وتبديد ما يعطاه في سبيل اللهو والزهو والشهوات .

أجل ان هذا النوع من الكرم يا سادة هو المعوّل عليه عند بعيدي النظر من متمولي الغرب . وكل ماننظره ونسمع به . او نقرأ عنه من المرافق الحيوية والمعاهد الادبية والعلمية . والملاجئ الخيرية القائمة في طول البلاد وعرضها على تضارب أنواعها ، وتفاوت مراميها وغاياتها ، انما هو اثر من آثار هذا الضرب من الاحسان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو لسوء الطالع مفقود ، او يكاد يكون مفقوداً تحت سماء هذه البقعة التي كتب عليها منذ مئين من السنين الغبن والحيف والجهل والحرمان .

أجل ثم أجل ياسادتي فان بهذا الكرم رُفع منار الانسانية ، وتمكنت دعائم العمران ، وتمهدت للامم الغربية سبل السعادة والغبطة والحضارة ، وخفت عنها وطأة شقاء الحياة وبؤسها . ولولاه لكان العجزة منهم يأنون منطرحين في زوايا الطرق ومنعرجات الأزقة ، شاكين آلام الامراض والجوع والمتربة بلتمسون الموت فلا يجدونه . ولكان ايتامهم وناشئة النساء منهم هائمين على وجوههم ، يكتنفهم الجهل والفساد ، ويحيط بهم الذل والمسكنة مما نرى أمثولته بيننا كل يوم . والعين تقطر دماً ، والقلب يتفطر حزناً . فان بهذا النوع من الكرم لا بغيره أنشئت مكاتب وملاجئ للعمي والصم والخرس والمقعدين . يتعلمون بها القراءة والكتابة والحساب وضروباً من الصناعات التي تلائم أحوالهم . فيعيشون رغداً آمنين مطمئنين . فلا يكونون عبئاً ثقيلاً على عواتق الناس ، فيكرههم اهلهم ، وتنبو بهم الارض ، وتبكي عليهم السماء .

وبه لا بغيره ترقت العلوم والفنون والصناعات ، وزاد الاكتشاف والاختراع حتى سخر الانسان العناصر لخدمته فغاص مسافراً في الماء . وركب طائراً في الهواء واستنار بالكهرباء . واستخدم البرق لنقل الاخبار . والبخار لجر الاثقال وسرعة الترحال . الى غير ذلك مما لو رُوي الى اسلافنا لعدّوه خرافات وأساطير تحكى ولا تعقل ، وتروى ولا تخيّل .

هذا هو الكرم الحق الذي يعرج باصحابه الى مقام الاعلام المحمودي الاثر الخالدي الذكر لا ماافتخر به عنترة العبسي بقوله :

(ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلمِ)
(بزجاجة صفراء ذات أسرةٍ قرنت بأزهر بالشمال مفدمِ)
(فاذا شربت فانني مستهلك مالي وعرضي وافرٌ لم يُكلمِ)
(واذا صحوت فما اقصّر عن ندىً وكما علمت شمائلي وتكرمي)

فان من يفتخر بسكره و يستهلك ماله كله في سبيل أريحيته عادلاً كان اوجائراً ثملاً اوصاحيًا هو الى الجنون أقرب . وخليقٌ بمثله ان يحجر عليه الى ان يصبح من العاقلين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القسم الثاني
« الكرم الجائر »

وهو الذي يجور على صاحبه المثري فيستكثر ما لديه مما تركه له آباؤه او جاءه عن طريق الصدف والاتفاق . فيأخذ بالتوسع في العطاء والاسراف في الانفاق . فان مشى أحاطت به حاشيته من اهل البطالة واللهو . وان جلس طوّقه فريق من اهل الحرص والطمع والنفاق . وان ركب ركب في موكب يشبه مواكب الملوك . يقصده المحتالون المتخرقون من كل اوب وصوب . فيغدق عليهم النوال و يكيله لهم جزافاً ليقال عنه انه جوادٌ وهاب . يُعطي بغير حساب . فلا يمرّ عليه حين من الدهر حتى يصبح ككثيرين من اولاد البيوتات في بلادنا خاليَ الجيب باديَ الانقاض . متدهوراً في مهواة اليأس والبؤس ، فهو ظالم لنفسه ، لانه أفقرها وأذلها ، ظالم لعائلته وذوي قرباه لانه أحوجهم وأشقاهم ، ظالم لمن أحسن اليهم لانه أغراهم بالتسوّل والكسل ، وكراهة العمل . فأصحاب هذا القسم من الاحسان آفة الوطن الكبرى ، وبلاؤه الادهم ، وشره المستطير . ولو تدبروا ووعوا لكان لهم من تراث آبائهم وتليد أموالهم وطارفها ما يقومون به على استدرار أخلاف النعمة . واستعمال ما أودعه الله في فطرتهم من مزايا البذل في موضعه مع الاعتدال والروّية والرفق . فعاش كل منهم سعيداً مجيداً ، ومات فقيداً حميداً ، حافظاً له الوطن واهلوه مكارم تعود عليه بحسن الاحدوثة وآثاراً تخلد له الثواب ، ولكنهم لا يتدبرون .

القسم الثالث
« الكرم الاحمق »

ينشأ ابن النعمة في بيت ابيه طاعماً كاسياً مخدوماً مكفيَّ المؤونة لا يطالب بشيء الا ان يكون رجلاً كاسباً مقتصداً نافعاً . فيلج باب الاعمال مديراً او كاتباً في احدى الخطط الاميرية او المؤسسات التجارية براتب لو تدبر فاحتفظ به ، وحرص على انمائه في الطرق المشروعة لألف منه على تراخي الايام ثروةً يستطيع معها عند الحاجة ان يكون رب بيت ينفق عليه من سعة ثم يكون من المحسنين : فان اضافة شعرة الى شعرة تؤلف لحيةً كما يقول العوام . ومن لا يبأ بالقليل لا ينسنى له الكثير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد)

فبدلاً من ان يسلك هذا السبيل الهادي الأمين الذي ينتهي به رويداً رويداً الى منزلة أفاضل الرجال العاملين ، يقول في نفسه انني لاأزال في ريّق الصبوة وربيع العمر لا يطلب مني شيء ولا أُسأل عن شيء ، فما ضرني لو بذلت راتبي باسداء الجميل واصطناع الاخوان ، فيبسط صدره ومجلسه لمن يعرض له من الاتراب والأقران فيستأنسون به و يتألبون حوله فتنفخه الكبرياء كالزق و يتوهم انه أصبح من مشاهير الاعلام المتميزين بالوجاهة والفضل : فاذا استقرضه احدهم ديناراً نفحه بدينارين ، وان استحسن لديه تحفةً أهداه تحفتين . ثم ينتهز فرصة عطلته وأوقات فراغه فيدعوهم الى الولائم والمآدب ومعاهد النزهة والطرب . فلا يمضي من الشهر اسبوعان حتى ينفد راتبه فيستلف من بعض الصيارفة على راتب الشهر الآتي ولا يزال يتدرج في هذه الطريق حتى تتراكم عليه الديون ، و يضيق عليه الدائنون ، فيهرع بعضهم الى ابيه فيشكون وبعضهم الى رئيسه فيتظلمون .

هنالك تنقشع الغمامة عن عيني ذلك الغرّ المسكين فتتجلى الحقيقة له كما هي فلا يشعر الا وابوه ماقتٌ له ورئيسه ساخطٌ عليه ، وأصحابه متفرقون عنه ، يتجنب الظهور في الأسواق لئلا يُرى فيُطالَب أمام الناس . و ينقطع عن الأندية ، ومجتمعات الحلق ، كيلا يضطر الى الانفاق ولا مال لديه : يجلس في دائرة عمله ناكس الرأس ، خاثر النفس ، متوزع الفكر لا تنبسط نفسه الى عمل ، ولا تصغي أذنه الى حديث ، ولا يبرح ذلك شأنه حتى ينتهي الى احد امرين : اما ان يرأف به ابوه فيفي ماعليه ثم يكون مسيطراً على حركاته وسكناته الى ما شاء الله وهو ذليل واجم كظيم . واما ان يتيسر له من غامض علم الله رزقٌ جديد او زيادة في الراتب فيتخلص من شدته بعد ان تبلغ روحه الحلقوم فيتخذها عبرةً تنكّب به عن مثل هذه المهواة الى ان يوافيه الأجل المحتوم .

هذا اذا لم يدركه العزل وتنتابه الفضيحة من قبل . فيساوره الغم وتتقاسمه الامراض فيلزم البيت خاسئاً مخذولاً مقهوراً : يرى الدنيا وما حوت من زخرف ظلمات بعضها فوق بعض . ولبئست العاقبة لمن لا يزدجرون .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذا الفريق ايضاً حسكٌ ينشب في حلق الاجتماع الانساني فيمنعه هناءه و يسلبه قراره . و يجعل حياة البلاد الاقتصادية الى الاحتضار أقرب . فالى الله المشتكى من قبل ومن بعد .

* * *

لقد طال بي ياسادة نفس الكلام حتى لم يبق سبيل للمزيد على انني أرجو ان يأتي يوم ، وهو منا قريب ، يقف فيه متمولونا وناشئتنا موقف الاعتدال بين منزلتي التقتير والتبذير . و يختارون من ضروب الاحسان ما يجعله نافعاً مفيداً عاماً معززاً للعلم والصناعات وملاجئ الخير والمبرات مخففاً عن كواهل الانسانية مصابها وإحنها وأسقامها حيثما يعرجون بهذا الوطن العزيز الى المستوى الذي يستحقه اهله من الغبطة والسعادة والرغد . انه سبحانه ولي التوفيق .

عضو المجمع العلمي العربي

سليم عنحوري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net